تمهيد

في رواية الشعر العربي وتدوينه

الشعر العربي ـ كما قيل ـ ديوان علم العرب ، وسجل حياتهم ، وهو مظهر عبقريتهم ، ومنتهى حكمتهم . بل هو ـ كما قال ابن رشيق ـ « فخارهم العظيم ، وقسطاسهم المستقيم » ، به يأخذون ، واليه يصيرون . ولم يكن لهم علم أصح منه ، فلا غرو أن يكون له قيمة عظيمة في أيامهم الحافلة ، وأسواقهم الأدبية ، وأن يكون دعامة السامر عندهم ، ومدار حلقات القوم لديهم ، يحفظونه تارة ، ويروونه تارات ، ويتدارسونه في المواسم يوم كانت تُضرب للنابغة الذبياني قبة الأدم في عكاظ ، فيحكم بين الشعراء والشواعر ، من أمثال حسان بن ثابت ، والأعشى ، والخنساء .

ومن المعروف أن « القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء ، يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم »(١) .

وما زال هـذا دأبهم وهجيراهم في الاسلام بعد الجاهلية أيضا ، اذ أصبح الشعر جوهر ميادين السياسة والأدب ، وأس « مناهج » التربية والتعليم ، وصاحب القدح المعلى في التهذيب والتثقيف . وقد جاء في **الحديث النبوي** : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » ، وهيهات أن تدع الأينق حنينها .

وأوصى **الفاروق** أحد أبنائه بقوله : « احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » ، كما كتب هذا الخليفة الراشد الى أبي موسى **الأشعري** قائلا : « مُر مَن قبلك بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالي الاخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب » .

وقال أول خليفة اموي : « اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر أدبكم » .

ذلك كله يدل على مكانة الشعر في نفوس العرب ، واحتفائهم به مهما تقلبت بهم الدهور . **ومن ثم كان هذا الشعر غزير المادة لديهم** منذ الجاهلية ، وازداد غزارة فيما تلاها من عصور ، حتى ان قصائده ومقطوعاته أكثر من أن

---

(١) العمدة ١/٦٥ . يتباشرون : يبشر بعضهم بعضا .

Scanned by CamScanner

يحيط بها محيط ، أو يقف من وراء عددها واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنها وعن قائليها من الشعراء ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال .

وكان العرب يتناقلون الشعر حفظا ورواية عن أصحابه ، أو بعضهم عن بعض ، وقد عرفوا ما يسمى بالمدارس الشعرية القائمة على رواية الشعر والتأثر به مثل : **كالمدرسة الأوسية** التي تبدأ صعوداً من الحطيئة ، الشاعر المخضرم ، الذي كان راوية زهير بن أبي سلمى وابنه كعب بن زهير ، كما كان زهير راوية زوج أمه الشاعر أوس بن حجر . ومن هذه الحلقات أيضا حلقة أخرى تبدأ بكثير عزة ، الذي كان راوية جميل بثينة ، وجميل هذا كان راوية الشاعر المخضرم هُدبة بن الخشرم ، وكان هدبة راوية الحطيئة .

ولما جاء الاسلام شغل العرب عن الشعر بالجهاد والفتوح ، وغزو فارس والروم ، ـ كما يقول ابن سلاّم ـ ثم اطمأنوا بالأمصار واستقرت دولتهم ، وعندئذ « راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »(١) .

ومع ذلك فقد نشطت رواية الشعر في صدر الاسلام ، وفي العصر الأموي خاصة لأسباب مختلفة ، وكان للعصبيات القبلية أثرها في هذا الميدان ، الى جانب التنافس بين الحواضر الاسلامية في الحجاز والشام والعراق ، وكثرة مجالس العلم والأدب والشعر لدى الرعاة والرعية على السواء . **وقد هيأ هذا كله لتدوين الاشعار وجمعها منذ أواسط القرن الثاني للهجرة ، مع بداية قيام الدولة العباسية ، ونشاط حركة التدوين** في ميادين العلوم والآداب(٢) ، ووضع علم النحو وجمع مفردات اللغة العربية ، والأحاديث النبوية ، بل ان الشعر نفسه قد أصبح محوراً لكثير من العلوم والثقافات ، فالأديب مثلا يتذوق ما فيه من مجالي الجمال والفن ، وأساليب البيان ، وكل عالم واجد في هذا الشعر ما يروي غليله وينقع ظمأه ، سواء في ذلك النحوي ، والبلاغي ، واللغوي ، والمؤرخ ، والمفسر ، والمحدث .. ومن اليهم .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ٢٢ ـ ٢٣ . والوافر : التام الذي لم ينقص منه شيء .

(٢) لم يكن التدوين بدعا في هذه الفترة ، فقد عرف قبل ذلك بسنين طويلة ولكن على نطاق ضيق جدا وبصورة محدودة ، وتجلى ذلك في شيء يسير جدا من الاشعار والأخبار والأيام والاحاديث النبوية ، هذا الى جانب القيام بجمع القرآن وكتابته في خلافتي عمر وعثمان .

Scanned by CamScanner

وكان من وراء ذلك أيضا شعر مفتعل موضوع ، لا خير فيه ، وقد سلط على الشعر من خلف الأحمر وحمّاد الراوية وغيرهما ما أفسده ، ولا مجال هنا لتفصيل القول في دوافع نحل الشعر ، والمهم أن العلماء الأثبات قد بينوا ذلك وتعقبوه ، حتى قال ابن سلام : « وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة ، ولا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون »(١) .

لم يقتصر جمع الشعر اذن على الرواية الشفوية فحسب ، بل عكف كثير من الرواة على التصنيف الجدي والتدوين الشامل ، وقلما كانوا يعتمدون في هذا الجمع على الصحف القليلة المدونة ، لأن هذه الصحف كانت عرضة للتحريف والتصحيف ، لسوء الخط ، وفقدان النقط والشكل ، وتعدد النساخ ، وكثرة التداول بين الأيدي ، ولأن أصحاب هذه الصحف لم يأخذوا ما فيها « عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد — اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه — أن يقبل من صحيفة ، ولا يروي عن صحفي»(٢) .

وتنوعت أعمال الرواة في تدوينهم للشعر العربي وجمعهم لأشتاته ، بعد أن تلقوه من أفواه رواة القبائل ومن الأعراب في البوادي ، بل كان الاعراب أنفسهم يفدون أحيانا على الحواضر ليأخذ عنهم الرواة والعلماء : الشعر واللغة والأخبار والأيام .

ومن أشهر أولئك الرواة : المفضل الضبي ، وأبو عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وأبو سعيد السكري ، ومحمد بن حبيب ، وأبو الحسن الطوسي....

وقد اتجه قسم من هؤلاء الرواة الى جمع دواوين الشعراء ، كل شاعر على حدة ، فأبو عمرو الشيباني جمع دواوين : امرىء القيس ، ولبيد بن ربيعة ، وتميم بن أبي بن مقبل ، ودريد بن الصمة ، والأعشى والحطيئة .. ومحمد بن حبيب جمع أشعار ذي الرمة ، والفرزدق ، وجران العود ، والصمة القشيري . ومن هذا ترى أن الشاعر الواحد قد يجمع شعره راو أو أكثر ، ولذلك تختلف الروايات وعدد القصائد بحسب جامعها أو راويها .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٠

(٢) المصدر نفسه ٦ . والصحفي : الذي يأخذ علمه عن صحيفة مكتوبة ، لم يعرض على العلماء ، ولم يتلق علمه بالرواية .

Scanned by CamScanner

ومن هؤلاء الرواة أنفسهم ، أو من غيرهم ، من اتجهوا الى جمع أشعار قبائل معينة ، كل قبيلة في ديوان مستقل ، فهذا أبو سعيد السكري يقوم بجمع أشعار خمس وعشرين قبيلة ، كبني هذيل ، وشيبان ، وبني يربوع ، وطيىء ، وكنانة ، وطيىء ، ومخزوم ، وعذرة ... كما أن أبا عمرو الشيباني جمع أشعار ما يزيد على ثمانين قبيلة ، وأثر ، للأسف ، لم يصل الينا من دواوين أشعار القبائل سوى ديوان واحد هو « ديوان الهذليين » الذي جمعه وشرحه أبو سعيد السكري ، ويضم أشعار حوالي اربعين شاعرا من قبيلة هذيل .

هذا الى أن هناك جماعة من الرواة اتجهت الى تصنيف ما يسمى بكتب الاختيار ، ونعني بها المجموعات الشعرية المختلفة التي تضم مختارات شعرية من مختلف العصور والأقطار ، تتناول بالشرح مستوياتها وطرائقها وكيفية تركيب قصائدها ومقطوعاتها ، ومنها « المفضليات » ، والأصمعيات ، وجمهرة أشعار العرب ، و« الحماسات » المختلفة ، والأشباه والنظائر وغيرها .

تلك سمات حركة رواية الشعر العربي وتدوينه ، وخصائص تلك الحركة في طرائقها ومناهجها ، وآثارها على تصور العصور في الحواضر والبوادي ، وسوف نقف في الصفحات التالية عند أشهر المجموعات الشعرية ، في القديم والحديث ، سواء في ذلك كتب الاختيار ، ودواوين القبائل ، أما الدواوين الشعرية الفردة فلا سبيل الى الوقوف عندها ، لقلة الفائدة منها في نطاق هذا الكتاب .

* * * *

Scanned by CamScanner